ابن الساعاتي (١)

لانيس المقدسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

(نشأة الشاعر) ليس في المصادر التي بين أيدينا عن حياة الشاعر ونشأته الاّ بضعة أسطر لابن خلكان وابن ابي أصيبعة وسواهما تذكر لنا ان اباه محمد بن علي بن رستم بن هردوز خراساني الأصل ومنشأً وقد انتقل الى الشام وفيها عُرف بعلم النجوم وصنع الساعات وهو الذي صنع الساعات التي كانت عند باب الجامع بدمشق في عهد نور الدين محمد بن زنكي وقد انعم عليه من أجلها ، وخلف هذا الرجل ولدين احدهما الشاعر بهاء الدين ابو الحسن علي والآخر فخر الدين رضوان وكان طبيباً لخدمته الايام فوزر للملكين الايوبيين العادل والمعظم

ولد الشاعر بهاء الدين في دمشق وقضى فيها الشطر الاكبر من حياته ثم رحل الى مصر فقضى الشطر الثاني هناك حيث توفي وهو في الحادية والخمسين، والظاهر انهُ لم يرحل عن وطنه الاّ كارهاً مدفوعاً بطلب النال وحسن الحال . ولقد يشمّ من نفثاته في تلك الآونة ان نفسه كانت مرة من فقره وعدم تقدير مواطنيه إياه

وقد اتصل بكثير من امراء الايوبيين ورجالهم من اعلام عصره فمدحهم ... وبرغم كل ذلك لم ينل منهم أيام اقامته في الشام ماكان يصبو اليه من تقدم وثروة ، ولم يحمل معهُ الى مصر غير الحاجة والمرارة والشعور بظلم الزمان . وبقي على ذلك مدة في وطنه الجديد ثم بدأت حالتهُ تتحسن . وفي السنوات العشر الاخيرة اصبح ذا بسطة ويسار

ولا نعلم هل اذا كان شاعرنا قد تعاطى شيئاً غير حرفة الادب فليس في شعره ولا فيما ترجم له ما يدل على ذلك . والذي نعرفهُ من شعره انه كان ربَّ عائلة وكان يقيم بالمحلة الكبرى وانهُ فقد في مصر ثلاثة من اولاده منهم اثنان ماتا حدثين فبكاهما في شعره بكاء الوالد الحزين ولم

---

(١) تلخيص للمقدمة التي وضعها الاستاذ انيس المقدسي استاذ الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية لديوان ابن الساعاتي الذي قام بتحقيقه ونشره . راجع باب مكتبة المقتطف في عدد تموز الماضي

بعد موتهم اكثر من ثماني سنوات قضاها مصدوع الفؤاد ، وكان قد تجاوز الاربعين فسمح أميل الى الزهد والتفكير مخالفاً فلسفته الاولى في الحياة فبعد أن كان القائل :

تعباً تخاف الفقر أو ترجو الغنى وبداك تأخذ ما تشاء وتترك
فاهجر مناحة الليالي واصـلاً دم كرمة في عرس لهو يسفك

أمسى يقول في الدنيا وصروفها :

فلا تثقن منها بعهد فانها لأغدر أنثى لا تدوم على إلّ
أقل وفاء من شباب مودع وأخضع في وقت الظهيرة من ظل
لايامها فينا ونحن رعية ولاية سوء لا تؤول الى عدل
تؤمل من آجالنا وهي القوى وتمسك من آمالنا وهي الحبل
وتسعى لها والحظ من زخرف الغنى وخضرتها خط السوام من البقل

﴿ شخصيته ﴾ لا بد للحكم على شخصية رجل ما من النظر في علاقاته الاجتماعية والاطلاع ولو جزئياً على طرف من حياته الفردية والعائلية . فاذا كان من الغابرين عمدنا الى دراسة سيرته وتحليل اقوال الناس فيه ، ولاسيما الذين عاصروه وعاشروه وقابلنا كل ذلك بما ينكشف من اقواله من عواطف وما يتجلى فيها من ميول . على انه ليس لدينا في دراسة ابن الساعاتي وتصوير شخصيته غير ما نستنتجه من خواطره الشعرية . وهذه وحدها قد تحيد بنا عن سواء السبيل . فلا بد لنا من التأني والتحرز لئلا نرسم لشاعر صورة خلقية لا تنطبق عليه تمام الانطباق

والذي يلوح لنا أنه كان من الظرفاء يحب مجالس اللهو والطرب ، وهذا الظرف بارز في قصائده الشامية وقد قلت فيه هذه النزعة في مصر ، ولم يكن الغنى الذي يسعى اليه على ما يظهر إلا سبيلاً للحصول على المشتهيات والتمتع بأسباب السرور واذا كان هذا الميل قد خف فيه بعد موت أولاده فهو لم يخبت في شعره تماماً ولم تتجرد منه طبيعته كل التجرد

ومما يبرز في ديوانه ميله الى التباهي بشعره وآله على طريقة المتقدمين ويساوق تباهيه بنفسه تهجمه على حساده ومنافسيه ولا سيما بعض أدباء الشام ، ولم يكن شاعرنا من ذوي الطباع الهادئة بل كان شديد الحرص على كرامته سريع الانفعال عما يمس سمعته فهو يرد لمنافسيه كيدهم ويطعنهم بأمضى من حرابهم وفي ذلك يذكرنا بالمتنبي وهو في حلب ، ولعل بين جوانح ابن الساعاتي شيئاً من تلك الروح الادبية التي كانت لأمير الشعراء ، فهو مثله نشأ في الشام ومثله قصد مصر بعد أن ضاقت به جوانب الشام وأصابه كيد الأعداء . على ان المتنبي كان أصلب نفساً وأبعد مرمى لا يحفل بالملاهي ولا تشغله عن أعز غاياته الشهوات

والمتتبع لمدائح ابن الساعاتي يلمح فيها تطوراً محسوساً من حيث المطالب والمرامي . فكان

أو لاذ ذا فاقة في المال فلا غرو ان يصرح في قصائده الشامية بما يؤمله من نوال الممدوح كقوله :

إن ضاقت الأرزاق عن ذي فاقةٍ   فله سبيلٌ من نوالك مهيعُ

وربما قصر في تقصيه عن الاستجداء ولاسيما في المدة الأولى على انه صار بعد ان تحسنت أحواله يكثر من التبجح بذكر المجد والنبل ، وانه انما يطلبها لا المال كقوله : —

صرتُ دون الوفود ألتمس المجـ   ـد وساروا لتأميل السماحِ

(شعره) شعر ابن الساعاتي صورة صادقة لعصره الذي بلغت فيه الصناعة البديعية في النثر والنظم أقصى مداها وكان هو وابن الفارض فارسي هذا المضمار وانما يختلفان في ان ابن الفارض قصر شعره على الحب والتصوف. أما ابن الساعاتي فسار في سنن الشعراء من مدح وفخر وهجاء ورثاء ووصف ومجون على انه لم يأت بروائع توقد الشعور العالي بل قصر همه على الافتنان بالمحسنات اللفظية والمعنوية

ومن الانصاف ان ننوه بمقدرته التخيلية التي تظهر في تشابيهه واستعاراته كقوله واصفاً حياته :

لا تعجبنَّ لشائب بلغ الثنى   كهلاً وأخفق في الشباب المقبلِ
فالخمر تحكم في العقول مسنّةً   وتداس أول عصرها بالأرجلِ

ومن ظواهر هذه المقدرة شغفه بايهام التناقض وذلك بأن يأتيك بمعنى ذي وجهين متضادين يستحيل الجمع بينهما بحسب الظاهر كقوله :

نحيا بسيف اللحظ يجرح مغمداً   ولسهمه يمضي وليس يفوّقُ

وله الكثير في هذا الباب . والحق يقال إننا قلما رأينا لشاعر ما لابن الساعاتي من التفطن لمثل هذه الدقائق والتوفر عليها . وقد تؤخذ عليه كثيره اصطناع بعض معان عرفت للمتقدمين من الشعراء وما ذلك عند التحقيق إلا لوفرة المدخر في حافظته من أقوالهم وحرصه الشديد على التفنن في ضروب المعاني فتأتي عفواً دون ان يفطن انه مسبوق اليها . أما أهم مزاياه فهي :

١ — إسرافه في الاناقة الفنية فهو شديد الولع بضروب البديع المعنوي واللفظي من تشبيه واستعارة وجناس وطباق وما الى ذلك . ومن ولعه بهذه الاناقة انه كتب الى القاضي الفاضل تسعة أبيات ولزم ان تكون قافية كل بيت منه وصف لون ، على ان هذا الولع بالبديع قد دفعه احياناً الى التصنع الذميم

٢ — ميله الى وصف الطبيعة ، وهو وصاف ماهر وأكثر وصفه يدور على دمشق وغوطتها يصف الرياض وما فيها من مياه وأشجار وازهار وظلال ونسيم ، ويصف الظواهر الجوية من غيث وسحاب وبرق وثلج وشمس وقمر ونجوم وظلام ، ومجالس الانس والشراب وما فيها من أسباب اللهو ومجالي الشراب

على أن اوصافه المصرية لا تضاهي اوصافه في جمال الطبيعة الشامية ، ولعل ذلك لأنه قضى زمن الصبا والشباب بين غياض دمشق فكان لها التأثير الاعظم في نفسه . وقد بقي هذا التأثير في نفسه طيلة اقامته في مصر ، فلم ينس المطر والثلج والغدران والحدائق والغيم وما الى ذلك مما يألفه اهل الشام . واوصافه الشامية مقرونة ابداً بالحنين اليها والولع بمحاسنها

٣ — ولـه بالغزل ، وله في هذا الفن سهم وافر ، ولا نعلم شاعراً عني عنايته بأن يجمع القطع الغزلية التي صدّر بها قصائد المديح ويفرد لها ديواناً خاصاً . وهو شديد الحرص على ان يكون التخلص من الغزل الى المديح تام الاتصال ، وفي ذلك يخالف البحتري الذي عُرف بالاقتضاب أو قطع الكلام واستئناف غيره بلا علاقة بينها

على ان غزل ابن الساعاتي عموماً — على بلاغته الفنية — لا يستثير في النفس مايستثيره غزل المحبين المدنفين الذين خاضوا غمرات الغرام وعرفوا بالاختبار تلك اللواعج المحرقة وما تسببه من اضطرابات وآلام . بل هو من نوع الغزل الذي شاع كثيراً في العصر العباسي وسواه ويتجه الى وصف المحبوب وظواهر الحب وصفاً ينسج على منوال البديع ، فيكثر الشاعر من ذكر الدموع والجوى والسهاد والفراق والمطال والخيال والعهود والعذال ، ويلهج بوصف الخدود والقدود والعيون والذوائب والثغور . ولقد مرنا في هذا الباب تفتيش طويل فلما نجد فيه أحد حتى نكاد تكون مقدماته الغزلية قصائد قائمة بذاتها اكثرها يتجاوز العشرين بيتاً أو الثلاثين ومنها مايتجاوز الاربعين . وفي جميعها تشعر بمقدرته اكثر من شعورك بروحه ، وبأسلوبه اكثر من عواطفه

وغزله في اكثر الاحيان صنعة يبرز فيها جهد الشاعر وحرصه على الاتيان بالمحسنات البيانية وليس في ديوانه مايشعر بانصرافه الى فتاة وتفت صبابته واشواقه عليها ، بل هو حبٌّ عامٌّ سداه ولحمته الوصف فهو يصدق على كل شخص وفي كل حال . ولم يكن غزله الا توطئة للمديح لم ينظمه مدفوعاً اليه بشعور الجوى أو جمال الحبيب بل هو نسيج كلامي يتكلف حياكته واتقانه فلا يتجلى فيه تواجد جميل بن معمر وقيس بن الملوح وعمر بن ابي ربيعة وكثيّر عزة ، والعباس بن الاحنف وابن زيدون وابن زريق والبها زهير وسواهم ممن كان لهم القدح المعلى في هذا المضمار ولم يقتصر غزله على النساء بل تناول الغلمان

والخلاصة ان ابن الساعاتي فنان ماهر طويل الباع في استخدام الالفاظ للتعبير عن مقاصده واسع الحيلة في التلاعب بالمعاني البيانية . ولا شك انه في ذلك وفي المدح خاصة يقابل بالطبقة الاولى من شعراء العصر العباسي . على انا اذا وازنا بينهُ وبين معاصره الاصغر ابن الفارض وجدنا ان الثاني — برغم انصرافه كالأول الى البديع والى الغزل — أرقُّ حساً وأبعد خيالاً وله في الشعر رسالة خاصة لا نراها عادةً لامثاله من البديعيين